

سلطة مشيختة الطريق الروحية*)

لقد أتى على الانسان في طور اجتماعه أدوار، وصرت عليه اجيال واعصار، وهو مغلول الارادة ومقيد الجوارح بسلطتين عظيمتين قويتين للقائمين عليهما النفوذ التام في افراده، والتصرف المطلق في آحاده، وهما سلطة الدين وسلطة السياسة، أو كما يقول أهل العصر السلطة الروحية والسلطة الزمنية. سلطتان لا يتم نظام الاجتماع بدونهما، ولا تحصل السعادة الا بهما، بل لا تتكون الامم والشعوب الا باحدهما او كليهما لان معنى الشعب المجتمع أو الامة المتمدنة أفراد من صنف واحد وأصناف متعددة تجتمعها وتضمها رابطة توحد المتعدد بوحدة الاعتقاد والعمل أو وحدة الحكم والنظام ولا معنى للسلطتين المتحدث عنهما الا مابه قوام هاتين الوحدتين من القوانين الاعتقادية، والادبية والشرائع العملية والقضائية، ولما كانت سعادة الامم بالوحدة القائمة بالسلطة كان شقاؤها بانقسام عرى الوحدة الناشيء عن نقص القوانين والشرائع عن حاجة الامة وعن نكوب القائمين بتعليمها وتنفيذها عن جادة الحق فيها وهكذا ينزل البلاء من جهة النعماء، ويأتي الضعف من جانب القوة، لان النسبة بين السعادة والشقاء ونحوهما، كالنسبة بين البصر والعمى فاذا تصور العمى فانما يتصور حيث يكون البصر لانه فقد وعده وكذلك يقال في سائر ما يسورن المتقابلة فيه. مقابلة المدم

(*) فاهجة المده الثاني والشرن العطار في ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣١٦

والملكة أو التقيضين وما بمعناها كالسعادة والشقاء والقوة والضعف والنفى
والفقر والعزة والذلة وما أشبه هاتنا

إذا فوض أمر السلطة الزمنية أو الروحية في الأمة لرجل واحد
طاعته واجبة ومشيئته نافذة لا يراد لامره ولا معقب لحكمه فسعادة تلك
الأمة وشقاؤها وعلمها وجهلها وغناها وفقرها إنما يكون ذلك كله وأمثاله
تابعاً لحال ذي السلطة فإذا كان خيراً فافضلاً حكماً خيراً أحوذاً (هو المشر
للأمور القاهر لها الذي لا يشذ عليه شيء) شمرياً (بتثليث المعجزة وتشديد
الميم المحرب الماضي في الأمور) نهض بالأمة ورقاها في ممارج الفلاح
وصعد بها إلى قنة السعادة، وإذا كان شريراً اجأها لأخرقاً وإمعاء (بكسر الهمزة
وتشديد الميم الذي لا رأي له ولا عزم يتابع كل أحد على رأيه في الدين
وقضيه) أو غملاًجا (بكسر المعجمة وهو الذي لا يثبت على حالة يكون تارة
حسن الخلق وتارة سيئه فمرة ظالماً ومرة عادلاً وأنا محسناً وآخر مسيئاً)
ط بالأمة إلى درك الشقاء ويضرب عليها الذلة والمسكنة وينتهي بها
في شر مصير

وبالجملة إن أمة هذا شأنها تكون دائماً متقلقة كقدح الراكب، لا
تثبت على حال، ولا تستقر على شأن، وجميع ما انتاب الأمم من رفعة ووضعة
وعلم وجهل وسعادة وشقاء فقد كان مرجعه لتصرف الأمراء والحاكمين،
والرؤساء الروحانيين، ولقد كان الشر أغلب على الأمم من الخير والضلال
أكثر استحوذاً عابها من الهدى والشقاء أشمل لها من السعادة لأن
الرئيس الناצל الحكيم لا يأمن من العثار وإذا عثر عثرت معه الأمة وهوت
وقد يهدم الرئيس الجاهل النوري في مدة قليلة تماينته الحكماء في الأجيال

الطوية . لهذا كانت سعادة البشر موقوفة في نوالها أو كمالها على تحديد القوانين والشرائع الروحية والزمنية وجعل الناس فيها شرطا (بالتحريك أي سواء) لا منزلة لرئيس على مرؤس الا بما يمتاز به المرؤسون بعضهم على بعض وبما لا تقوم الرياسة بدونه كوجوب الطاعة للسلطان ولا طاعة لاحد على أحد فيما وراء الشريعة والقانون ولكن لم تأت شريعة سماوية ولم يوضع قانون بشري لهذا التحديد والمساواة حتى جاءت الديانة الاسلامية فحددت الشريعتين (الزمنية والروحية) معا وجعلت الناس فيها سواء لا فضل لاحد على أحد الا بالعلم والعمل واقتلعت جذور الطاعة العمياء وبينت ان الدعوة الى الحق لا تكون الا بالحجة والبرهان بمثل قوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) فسر العلماء البصيرة بالحجة الواضحة وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) وبناء على هذا كان الصحابة يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم الرأي قائلين هل هذا شيء قلته من عندك يا رسول الله أو نزل به وحي ؟ قال : فان هو من عندي جاؤا بما عندهم من الرأي بما رجع النبي الى رأيهم كما جرى في بعض الغزوات وأوقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الامام عليا مع رجل من آحاد يهود للمحاكمة وعاتبه علي بعد المحاكمة بأنه لم يساو بينه وبين خصمه لانه كناه وسمى خصمه وفي التكنية تعظيم وتمظيم أحد الخصمين ولو يمثل هذا مناف للعدالة والمساواة وراجعت امرأة عمر وهو على المنبر في مسألة تحديد المهر محتجة عليه بآية « وآيتيم أحدهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيأ » فقال أصابت امرأة واخطأ عمر وابلغ من هذا كله أن النبي عليه الصلاة والسلام طعن سواد ابن غزيرة بقدم « سهم لا

نصل له ولا ريش « في بطنه وهو مكشوف ليستوي في الصف يوم بدر
فقال قد أوجعتني فأقدي فكشف له عن بطنه ليقتص منه فطلق يتمسح
به وكان ذلك منه توسلا للتوصل الى هذا الشرف العظيم . وآذن الناس
قبل موته بأن من له حق عنده فليطلبه وإذا كان نحو ضرب فليقتص منه
وأذن لرجل أن يضربه حين ادعي أنه ضربه يوما فقال الرجل اني كنت
عاري الكتف أو الظهر فألقى له الرداء عن عاتقه الشريف وكان شأنه في
ذلك شأن سواد بن غزية . والنتيجة أن الاسلام قرر العبودية لله وحده
والحرية في ضمن دائرة الشريعة والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات
واطلاق الارادة والفكر من سلطة كل زعيم وسيطرة كل رئيس روحي
ومقتضى ذلك أن يكون المسلم عبدا كاملا لله، حراً كاملاً بالنسبة لما سواه
لقد ولينا وجهنا في هذه المقالة شطر السلطة الروحية وأما الشطر
الآخر فالتاريخ يشرح ما كان من شأن حكام المسلمين وأمرأهم بأزاء تحديد
الشريعة وتقييد السلطة الذي جاءت به الديانة الاسلامية وكتب الفقه تشرح
حقوق ووظائف الامام الاعظم والقضاة والحكام فليرجع اليهما . ونعني
بالسلطة الروحية سلطة العلماء والوعاظ والمتصدين للارشاد وتهذيب
الاخلاق وتقوم الملكات، مضي الصدر الاول من سلف الامة والمسلمون
كما قال الله تعالى اخوة وعلوم الدين مبذولة لهم على السواء بتناول كل أحد
من الكتاب والسنة ما وصل اليه فهمه فان عرضت واقعة لاحد ولم يهتد
للحكم فيها راجع غيره من اخوانه فان وجد عند من راجعه نصا أخذ به
والا رجع الى اجتهاده ان كان من أهل الاجتهاد أو قلد من ثق به نفسه
ممن يعتقد بهم العلم على تفصيل في ذلك ليس هذا محله وما كان عالم يترفع

على جاهل ولا مرشد يترأس على مسترشد ولم يدع فرد من الافراد
أو صنف من الاصناف الامتياز في الدين لذاته أو الوساطة بين الله وبين
سائر الناس في عرض أعمالهم عليه والتوسل اليه في قبولها أو إيصال الخير
منه سبحانه اليهم ولم يكن هناك الا العلم والتعليم من غير حجب ولا استثناء
بل كان أعلم الناس بدين الله وأشدهم تمسكاً به أبعدهم عن دعوى الامتياز
وأكثرهم خوفاً من ربه ان يأخذ به ذنبه وعمله السيء ولا يقبل منه عمله
الصالح لاتهام نفسه بالرياء وعدم الاخلاص فضلاً عن دعوى الوساطة
بين العباد وربهم.

كان الامر على ذلك حتى ظهرت في الامة فرقة الصوفية العظيمة
رأى شيوخها للارشاد والتربية العملية ونماهي . ساروا في هذه
التربية على منهاج الكتاب والسنة وأظهروا ما فيها من دقائق الآداب
والتهذيب علماء وعملوا وتخلتوا وتحققا فصلحت بذلك سرائرهم، واستضاءت بصائرهم
وظهر لمن يعرف التاريخ الفرق بين التهذيب العقلي المحض ، كتهذيب
فلاسفة اليونان المشوب بالذائل الملتصق بحمأة المقاذر، وبين التهذيب الديني
العقلي الصافي من الاكدار، الراقي بذويته الى مصاف الملائكة الاخيار،
(سننشيء مقالات في تراجم الفريقين للمقابلة بينهما ان شاء الله تعالى) لكن
لما كانت التربية العملية تدور على قطب الناسي والاعتداء على النفس
المميزة للاقتداء الا بمن تمتد به الكمال بالغ القوم في التسليم لشيوخهم
والادب معهم والاعتقاد بكمالهم الى درجة ألزموا فيها المرید بالطاعة العمياء
لا ستاذه واعتقاد ان جميع ما يصدر عنه من قول وعمل هو فضيلة وكمال
وأوجبوا عليه أن يؤول له ما يترأى انه ذنب أو نقیصة وغالوا في ذلك

حتى قال بعضهم اذا رأى المريدي شيخه يشرب خمرًا فينبغي أن يعتقد ان الخمر استحالت ماء أو عسلاً قبل ان تصل إلى فيه المبارك كرامة له وحتموا عليه ان يعتقد بأنه لا يصل الى مقام المعرفة بالله تعالى ولا ينال الزلف والرضوان من لدنه الا بهذا الاعتقاد والطاعة من غير انكار في الظاهر ولا في الباطن وان خالف في ذلك أو ترك الشيخ لغيره أو مطلقاً فهو على خطر حتى على أصل ايمانه ودينه

قلنا أن السلطة المطلقة والطاعة العمياء تكون فيها سعادة الرؤس منوطة بحال الرئيس وكذلك كان الشأن في طريق الصوفية فلقد قام فيهم أئمة عارفون يهدون بالحق وبه يعدلون سلكوا سبيل السالف الصالح في التواضع والتبرؤ من دعوى الامتياز والترفع على الناس والتصل من الشطحات والطامات التي لا يشهد لها الشرع وحصروا الارشاد بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والتخلق بالاخلاق الفاضلة ، واهتدى بهم خلائق لا تحصى ، وكيف لا يهتدي من يقتدي بالمالم العامل ويطيع الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر

نعم قد اهتدى بالسلطة الروحية المطلقة والطاعة العمياء لشيوخ الطريق أقوام ولكن الذين ضلوا أكثر من الذين اهتدوا وفاقاً لما قررنا آنفاً فقد قام بعد أولئك الشيوخ العارفين شيوخ جهال أتقوا بذور الضلال في نفوس أتباعهم فنبتت وأثمرت ثمراً خبيثاً تجني الأمة منه حظلاً ونظماً زقوما . لقنوا الناس الجبر بمنوان التوحيد واسم القضاء والقدر وعلقوا نفوسهم بالشيوخ أحياء وأمواتا وعلموهم الاستعانة بهم في مصالحهم

بحجة أنهم أصحاب كرامات وشفعاء عند الله يتوسطون بينه وبين عباده في حاجهم وان كانوا ربما في قبورهم حتى قال بعضهم لا فرق في طلبنا الحاجة من الحي وطلبنا ايها من الميت لان كلا منهما لا فضل له ولا تأثير في الابدان وكلا منهما قد يكون واسطة - الحي واسطة جسدية والميت واسطة روحية - وكسلوم عن الاعمال النافعة والمصالح العمومية باسم الزهد والتسليم للقدر وغير ذلك مما لاسعة في هذه المقالة لشرحه . ولم تقف مضرات جهلهم عند هذه الوسوس الدينية بل استعملوا تفوذهم لخدمة سياسة الاجانب وتمكينها من الاستيلاء على أمتهم واتنا زوي لك بعض شأنهم في ذلك فاعتبر بما يروى البقية للآتي

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

ألمنا في المقالة السابقة ببعض تعاليم الجهلاء من شيوخ الطريق وذكرنا ان منها تطبيق النفوس واناطة الآمال بالشيوخ أحياء وأمواتاً، وتطليم الناس الاستماتة بهم على قضاء الحاج ، بحجة أنهم أصحاب كرامات وشفعاء يتوسطون بين الله تعالى وبين عباده في درء المفاسد والمضار، وجلب المنافع والمصالح ، ولما كان هذا من الاعتقادات المضرة التي هدمها الاسلام كما ألمنا في المقالة المتقدمة ، وكان ما كتبناه سابقاً في منكرات الموالد لم يكف لاقناع جميع الآخذين به لا يجازه واجماله أحيانا أن زيده ايضاحا ليميز الحق من الباطل فنقول :

الذاهبون الى أن من الدين الاستغاثة بمن يمتقد فيهم الولاية أحياء وأمواتا والوقوف على الاجداث والقبور لطلب المصالح التي عز طلابها، والحاج